

اللغة وفلسفة الحقيقة: تطبيقات على التفكير الأعوج

د. إبراهيم حسين خليل/جامعة البترا

من مقولات الفلسفة المشهورة: ما ثبت بالجدل فبالجدل ينتفي. وما ثبت بالعقل فبالعقل ينتفي. ونحن هنا سنجعل النقاش عقليا بالاتجاهين انطلاقا من المقولة السابقة.

أولاً: اللغة والعلاقة بين الحادثة والحقيقة.

الحادثة هي الحقيقة ذاتها. أما الانفصال بينهما فيقع من جهتين وهميتين هما : الدال اللغوي، وزاوية النظر. لذلك فالشيء الذي هو حقيقة واحدٌ بغض النظر عن التسمية أو زاوية النظر إليه؛ لأنها طرق في إدراك هذا الشيء، وهي في الواقع لا تغير منه شيئاً، فنظرك إلى مبنى ما من جهته الأمامية أو الخلفية لا يغير من طبيعة المبنى نفسه، وأياً كانت تسميتك له، فلن تغير فيه شيئاً أيضاً، وعلى ذلك؛ فالحادثة اصطلاح من جهة السيرورة؛ لأن الحدث مسبوق بغيره من ناحية ومتلو من ناحية أخرى، أي إنه لم يكن ثم كان، ولاحظ هنا علاقة الدال اللغوي بالزمن. و"الحقيقة" اصطلاح من جهة الثبات للحدث الموصوف، أي لا دور لحركة الزمن في الحقيقة، وعليه فليس لحركة الزمن تأثير في "معنى" الحقيقة. للتوضيح نأخذ كلمة مثل كلمة "يوم". فاليوم المعروف لدينا-من ناحية- هو حقيقة واقعة في الكرة الأرضية، تتكون من "قطع" هذه القطع هي ساعات عددها 24. ومن ناحية أخرى فاليوم حادث لأنه يتكون من توالي هذه "القطع" واتصالها، ومسبوق بمثله ومتلو بمثله أيضاً. فإذا نظرنا إلى كلمة "يوم" على أنها كلمة ذات دلالة سكونية بالرجوع إلى خاصية التناظر الفيزيائية فإننا نصف شيئاً مركباً جامداً، وهي هنا حقيقة، أي إنها ظاهرة من نوع خاص موجودة بالفعل، وإذا قمنا بكسر خاصية التناظر-وهذا يحتاج إلى مبرر وغالبا ما يكون هذا المبرر هو الرغبة في التواضع التاريخي- فإننا عندئذ نجعل من الحادثة لحظة مركزية، فننظر إليها على أنها سيرورة زمنية وسيطة تتلوها سيرورة زمنية وتسبقها أخرى، فإنها عندئذ حادثة، ويدلك على ذلك عدم ثباتها عند الجميع، لأن الزمن نسبي من ناحيتين؛ النسبية الشخصية، لأنك تشعر أحيانا بطول الوقت، ومروره بتقل وتباطؤ، في حين يشعر غيرك أن هذا اليوم ذاته مرّ كلمح بالبصر. ولكن هذه المشاعر الشخصية النسبية تجاه الزمن لا تغير منه شيئاً، فالحادثة-التي هي حقيقة في الأصل-صارت رهينة النفس عند التعبير عنها، والنسبية الزمنية الثانية هي النسبية الفيزيائية، فالزمن مرتبط بسرعة الحركة المقيسة نسبياً إلى سرعة الضوء التي تبلغ 300,000 كلم/ث وهي السرعة الكونية القصوى. لأن حركة أي جسم لها علاقة بكتلته وطاقته، فهما متغيرتان بسبب السرعة التي يتحرك بها هذا الجسم. فُيُبل رحيله عن الدنيا كان آينشتاين يحلم بجمع القوى الطبيعية الأربعة (الجاذبية والكهرومغناطيسية، والنوويتين: القوية والضعيفة) في معادلة واحدة، لأن المنطق الكوني المحسوس كان يفرض هذه المحاولة بقوة على العلماء لأننا لا نرى تضاربا بينها، فالكون يسير بانسجام تام، ولكن آينشتاين مات دون أن يحقق هذا الحلم الذي ما زال الفيزيائيون يشتغلون عليه، ما يهمننا هنا هو ما قال ستيفن واين بيرغ حول محاولات آينشتاين حيث قال كلاماً غاية في البساطة والعمق في الوقت نفسه: "لم يكن آينشتاين قارداً على تحقيق هذا الحلم بسبب بسيط؛ وهو أنه ظل يقف من توحيد القوى الأربعة في المكان نفسه الذي كان واقفاً فيه عندما وضع النسبية وحل لغز الجاذبية التي لم يدرك كونها نيوتن مع أنه وضع قوانينها التي مازالت سارية المفعول على الأرض. فكان عليه أن يغير زاوية

النظر إلى هذه القوى ويدرسها من منظور مختلف". وهذا يعني أنك قد لا تستطيع إدراك الحقيقة بواسطة أسلوب واحد في التفكير، فلا بد من التنوع فيه ومحاولة التفكير في الأمور بطرق مختلفة.

عودا إلى النسبية الشخصية المرتبطة بالشعور؛ ف"الحقيقة" ليست كذلك أو يجب ألا تكون كذلك، إذن فالقسمة بينهما موجودة داخل نفوسنا وليست موجودة في الواقع. وما هو غير موجود في الواقع فليس موجود في الحقيقة. والعكس صحيح، وإذا كنّا نتحدث عن أجسام محسوسة ونعتبر الحقيقة فيها؛ فهذا لا يعني أن "المعاني" ليست موجودة في الواقع أقصد تلك الأشياء غير المادية كالغضب والحب والشجاعة والألم، ولكنها تظهر في الوجود عبر رؤية آثارها أو الإحساس بتلك الآثار، وهي موجودة بالفعل كمواد وإفرازات هرمونية كيميائية صادرة عن الجهاز العصبي أو الغُد، لا يراها الشخص بشكل مادي بل يشعر بآثارها النفسية، لكن رؤيتها مخبريا متصلة، وتتحول إلى أرقام ونسب في تقرير الفحص الطبي المخبري. نخلص من ذلك أن الحقيقة /الحادثة هي الموجود الفعلي. أما ما هو غير موجود بالفعل فليس بحقيقة. ولهذا الشيء غير الموجود بالفعل تسميات عدة مثل الميتافيزيقا والظن والهاجس والحدس والتخمين والفرضية والخزعبلات والأساطير والهالوس وغير ذلك، وهي أشياء يتوهمها الإنسان وتتلبسها نفسه (دماغه-الجهاز العصبي)، وتستطيع أن تستدل على ذلك من خبراتك اليومية ومعرفتك بطرق تفكير الناس والأصدقاء.

والواقع أننا نلخط خلال التعبير عن الحقيقة بين مستويين من اللغة، فنستعمل اللغة الانفعالية في التعبير عن الحقيقة، ونجعلها عندئذ رهينة الموقف الشخصي، وبذلك نقوم بتزويرها بقصد أو بغير قصد، ف"اليوم" هو هذه الكلمة المتداولة المعروفة لدى الجميع، وهي ظاهرة تنتج عن دوران الأرض حول نفسها، وهي بذلك "حدث" متكرر. خلاصة القول إن دلالة كلمة "يوم" تصنف في فلسفة الفيزياء النظرية ضمن "الكليات" الكونية. وهي بذلك حقيقة ناتجة عن حقيقة سابقة عليها، والحقيقة الأخيرة أيضا بدورها نتيجة لحقيقة أخرى، وبذلك فإننا أمام حقائق مترابطة، أما إذا اعتبرنا الترتيب الزمني لوقوع هذه الحقائق فعندئذ نستطيع تسميتها بأنها "حوادث"، وإذا تحدثنا عن اليوم بأنه جميل أو سيء أو سريع أو بطيء فإننا نتحدث بلغة أدبية انفعالية، ونحن الآن بعيدون كل البعد عن الحديث عن الحقائق.

المسألة نظريا واضحة، ولكن المشكلة تقع عند الحديث عن الإشكاليات في الفكر الفلسفي الذي صار أحيانا نوعا من اللاهوت، حيث يتحدث عما يسميه بـ "حقائق" كونية أو تاريخية مصدرها الاستدلال العقلي في الفلسفة أو النقل الأبكم، أو تفسير ورودها عبر تراكيب لغوية في الكتب المقدسة بلغة انفعالية، مما اضطر هذا الفكر إلى تطوير تفسيره عبر الزمن بإضافة أشياء يسميها "حقائق" لا إلى النص لأنه محفوظ، بل إلى تفسيره للخروج من بعض المحاكمات اللغوية المتضاربة مع نتائج علمي الفيزياء والبيولوجيا بشكل خاص، في حين أنها حوادث وقعت بالفعل أو لم تقع مطلقا، وهي موصوفة بلغة أدبية فنية، فهي بذلك مكشوفة بشرط أن تقرأها بحيادية وتحاكمها محاكمة عقلية، أما إذا سلّمت لما يقال بلا أدنى حس نقدي فستتراءى لك اللغة الانفعالية وكأنها تضع الحقائق الكونية أو التاريخية بين يديك بكل بساطة، من خلال عبارات مهيبة مليئة بالاستعارات الفنية، واللغة التي توقع الهيبة في نفوس المستمعين فتصرفهم عن التفكير فيما يقال، بهذا المعنى تصبح اللغة أضلولة، وطريقة فعالة لتميرير الخدع. فالحقيقة هي : الواقع كما هو. والخديعة : الواقع كما أريده، أو كما يتراءى لي". واللغة هي التي تصنع الفارق بين (كما هو) من جهة، و (كما أريده أو يتراءى لي) من جهة أخرى.

خذ مصطلحا كـ"الحدث" مثلا، وانظر إلى مفهوم هذا المصطلح ودلالاته المتعددة عند المفكرين من ناحية ، وانظر إليه كيف يُمارس في الحياة العامة اليومية في البلاد العربية، وهنا نحن أمام ناحية نظرية وأخرى عملية، والفرق بينهما شاسع جدا. وتلعب خاصية الاشتقاق اللغوي هنا دورا حاسما، حيث تتحول بنا هذه الاشتقاقات من المفهوم الحقيقي للمصطلح إلى مفاهيم أخرى بعيدة عن الأصل في حين أننا نناقش النسخ المزيفة من "الحدث" على أنها الحدث بعينها. فنقع في خلط المفاهيم ببعضها فنقول إننا حدثيون بناءً على مفهوم "التحديث" لا على "الحدث" كمصطلح نقدي تقع جميع المجالات المعرفية تحت مظلته، والفكرية على رأسها.

ونستطيع من خلال من كتبوا في الحدث مثل كارل ماركس ودوركايم وفايبر مثلا أن نحدد اتجاهها للحدث بأنها ثورة على المؤلف من التقاليد إلى حد مخالفتها 180 درجة، تتمثل في الإبداع والحجر على التاريخ والتراث، في حين نفهم نحن هنا في العالم العربي الحدث عبر اشتقاق "التحديث" من الحدث، كلفظ مرادف له تماما، وهذا ليس صحيحا، لأن التحديث الذي نقول به يعني ارتباطنا بالتاريخ والتراث وإجراء بعض التعديلات عليه كي يتلاءم وعصرنا، ويعني أيضا استهلاك الجديد من منتجات الحضارة الحديثة وإلقاء القديم في سلة الخردة. بهذا المفهوم يكتسي مصطلح الحدث فهما سخيفاً وسطحياً. إن الحدث تقوم على مبدأين؛ الإبداع الذي يعني التخلي عن القديم والإتيان بما هو جديد كلياً، ثم مركزية العقل في إنتاج الإبداع المادي والفكري، وإن شئت فقدّم الفكري على المادي.

على أية حال فالحدث تحولت إلى إشكالية جدلية في عالمنا العربي في الوقت الذي يجب أن تكون فيه حلا لمشكلاتنا هي ليست موضوعنا، إلا أنني أحيلك إلى أعمال محمد عبده وسيد قطب والكواكبي من جهة، وأعمال طه حسين وقاسم أمين ومحمد عمارة وسيد القمني من جهة أخرى لتبين الفرق في النظرة إلى الحدث، على أن موضوعنا هو دور اللغة في ذلك، ودورها كما أشرت سابقا هو تمرير خديعة غير مقصودة -على ما أتصور- إنما الجهل بحقيقتها هو الذي أوجد الخديعة، وسقوطنا في مغالطة "التضييق" هو الذي جاءنا بهذه الخديعة، التي نتلخص في تحويل الاصطلاح إلى مفهوم آخر عبر الاشتقاق اللغوي؛ فظل مفهوم الحدث يتحدد من خلال الموقف من التراث. فتجد المفكر يتحدث في "الحدث"، مستخدما هذا الاصطلاح بكل ثقة في حين أنه يتحدث عن "التحديث".

أما عملية إيصال الحقيقة بين الطرفين: المرسل والمستقبل فنقع أيضا في إشكالية كيفية الاستقبال فضلا عن كيفية الإرسال. وهنا يلزم أن نطبق الاستراتيجية القيمة التي وضعها ديفد بيركنز للتأكد من فهمنا للكلام الذي نسمعه، وذلك بأن يتساءل المستقبل عن قصد المرسل عن طريق إعادة صياغة كلام المرسل من جديد، وسؤاله: هل هذا الكلام هو ما تقصد بالفعل؟ من هنا يمكن أن نقف على قصد المرسل بدقة، ولكن هذا لا يعني أن المرسل كان أمينا في الإبلاغ عن الحقيقة.

وهذا لا يحول دون أن تمر الخديعة عبر اللغة، هنا نحن نحتاج إلى وسيط؛ فيلزم بناءً على ذلك اللجوء إلى استراتيجيات غير لغوية للتحقق من الحقيقة كالبحت في موثوقية المصادر كما يذهب المتخصصون في تعليم التفكير مثل روبرت سوارز وآرثر كوستا، كذلك النظر في أكثر من مصدر للتحقق من أنها واقعة كما تحدث عنها المرسل الأول أو لا.

وذلك أمر سهل إذا توفرت سبل الوقوف على الحقيقة من مصادر متعددة، أما الإشكالية فإننا نواجهها عندما تأتينا "الحقيقة" من التراث والتاريخ الذي لم يسجل إلا بيد واحدة، ولا مصدر له غير ذلك. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فالمشكلة تزداد صعوبة وتعقيدا إذا كانت "الحقائق" هي عبارات مسطورة في كتاب مقدس صار لها تفسير شائع مسلم به. فإن مجرد محاولة التحقق منها يعني بدوره الشك فيها، وهو أمر في غاية الخطورة لأن تعاملك مع الكتب المقدسة وتفسيرها يجب أن يكون مدروسا بحذر، واللغة التي تتحدث من خلالها يجب أن تتوافق وهيبة الكتب المقدسة، وبذلك لا تجد أمامك إلا طريقا واحدا لا غير عند الحديث فيما يسمى تفسيراً لـ"حقائق" الكتب المقدسة، وهي اللغة الانفعالية الجليبة. وهو اتجاه إجباري لا يمكن أن تسير بعكسه لا سيما أن لتفسير الكتب المقدسة سلطانا اجتماعيا يعلو فوق كل سلطان. فتجد نفسك مضطرا لتمرير الخديعة اللغوية على نفسك وتظاهر بأن المخادع اللغوي الذي يتحدث إليك يأتي بالجواهر من الحكم، والنوادر من ثمين الدرر، وهو في الحقيقة يسير في دروب الأضاليل، بينما أنت تشيد بأغاليطه، في حين أنه جعل من الوهم حقيقة مزيفة، ومن الحقيقة الواقعة بالفعل وهماً.

ثانياً : التحول من الموضوع إلى الذات والعكس:

من الأخطاء اللغوية -المنطقية حسب وليم جيمس. نطبقه هنا على الخلط بين الذات والموضوع، وهو خطأ منطقي مشهور جداً، فبينما يسأل مقدم البرنامج على شاشة إحدى الفضائيات قائلاً: ما رأيك يا أستاذنا بما يقوله ستيفن هوكينغ في كتابه الأخير؟ أجاب العلامة الذي يستمد الحقيقة من اللغة الأدبية وبمنهج انتقائي، أجاب بقوله: "لقد قرأت كتابه وتبين لي أن هذا الرجل مختل عقلياً". وقال آخر: "ليس بسبب شيء قليل أصابه الله بهذا المرض الذي جعله أشبه بالقرود". معلوم أن ستيفن هوكينغ أكبر فيزيائي الآن، وهو مصاب بمرض ضمور العضلات، ويتحرك على كرسي بعجلات. وقد أصيب بالمرض منذ ولادته. ولكن علينا أن ننظر في الإجابات السابقة رداً على ما جاء في كتاب هوكينغ الأخير.

سؤال السائل كان يدور حول "موضوع" الكتاب وأفكاره. ولكن رد العلامة الكبير كان أنه نسب الجنون إلى مؤلف الكتاب لا إلى الأفكار، علماً أننا كنا نتوقع -وقد قال العلامة أنه قرأ الكتاب- أن يبين لنا الحجج التي استند إليها هوكينغ، ويفندّها ويبين الأغاليط التي سقط فيها، كون علامتنا عالماً في الجيولوجيا والفيزياء والبيولوجيا، ويعارض ما جاء في كتاب هوكينغ جملة وتفصيلاً، فحول باللغة الحديث من الموضوع (أفكار هوكينغ) إلى (ذات هوكينغ) حيث شتمه. أما المحيب الآخر فقد كان شامتا وجاهلاً والسبب واضح، لأن المرض الذي أصاب هوكينغ كان يعانیه قبل أن يؤلف الكتاب بحوالي 50 عاماً. فلماذا أصابه الله منذ ولادته بهذا المرض ولم يكن يعرف القراءة والكتابة بعد! هذا منطوق ليس سليماً تجليبه لنا اللغة الانفعالية التي أجاب بها الاثنان، والتي تصدر عن كثير من "العلماء والباحثين". وتظهر الأفكار العوجاء في جملهم وعباراتهم، التي يأنس بها العامة ويتلقونها بترحاب شديد، لوقوعهم في مغالطة منطقية أخرى بدورهم، وهي الشخصنة المهيبة؛ "فما دام أن فلاناً قال هذا إذن فقولته صحيح"، دون تعريض الكلام لأي حس نقدي عقلي؛ وبغض النظر عن الموقف من كتاب هوكينغ، فالمكان المناسب لهوكينغ -حسب فكر هؤلاء- هو معتقل المجانين لا جامعة أكسفورد.. فهل نعدّ هذا المنهج الفكري اللغوي من قبيل التفكير الأعوج أم المستقيم!؟

من كتاب "أصلولة اللغة" / د. إبراهيم حسين